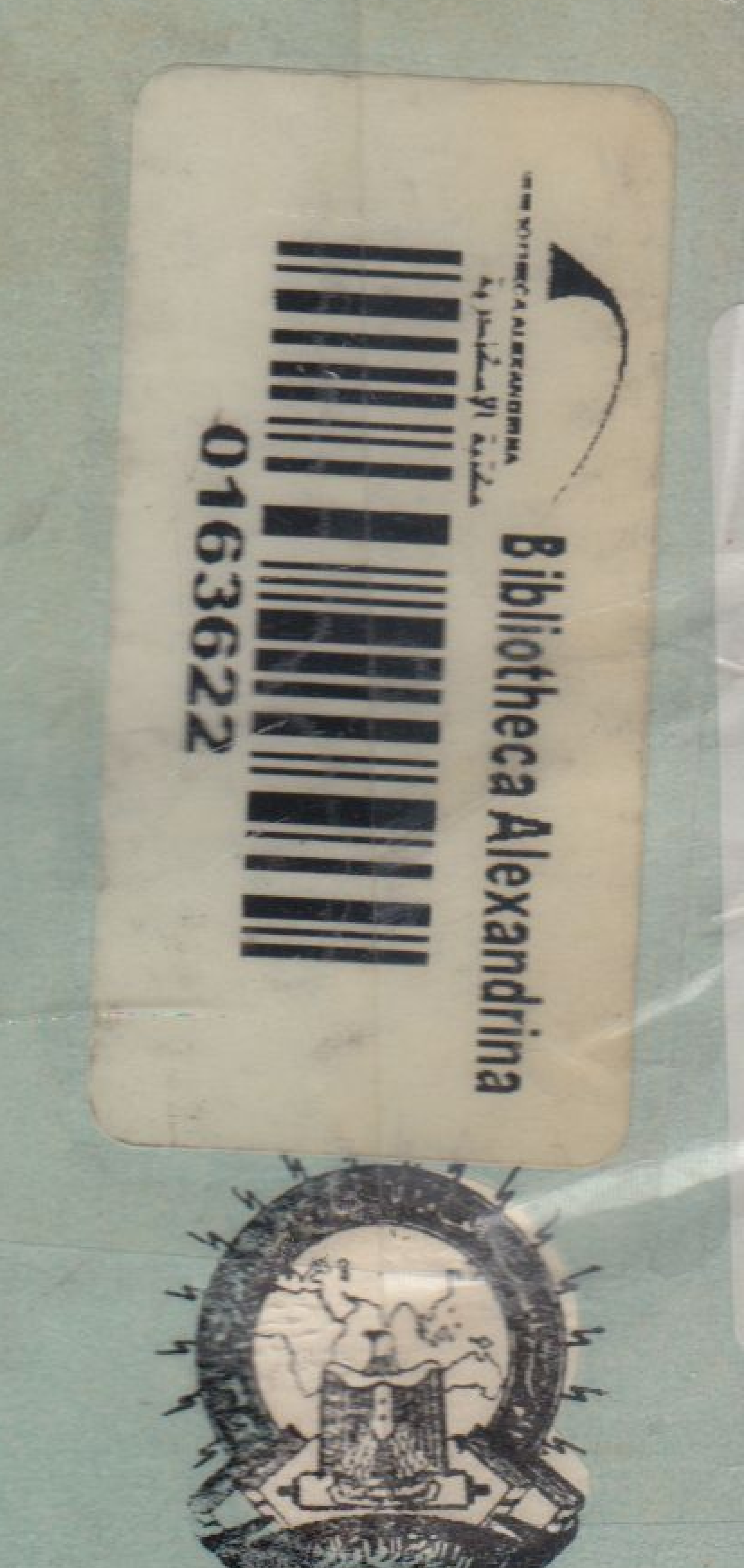
اخترنا للجندى

# الأسكندرية

## تحت السيف والنار

تأليف العقيد

عمر محمد السرساوى









## تحت السيف والنار

تاليف

العقيد عمر محمد السرساوى

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانْصُرْنَا
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينْ .

صدق الله العظيم

# من مآسي الحروب الصليبية

## الحرب بين قبرص ومصر
## في أواخر القرن الرابع عشر

**قد تدمي البعوضة مقلة الأسد**

# اهـداء

الى جموع الشعب الذى لا ينام على ضيم ، والذى رأى ذات يوم ان ينظم مقاومته وينضم الى جيشه ليصد الغزاة عن أرضه الطاهرة .

الى ذلك الشـــعب الذى كافح ذات يوم فى الاسكندرية الباسلة ، فى الماضى البعيد .

والى ذلك الشـــعب الذى قاتل ذات يوم فى بورسعيد الخالدة ، فى الأمس القريب .

وايضا الى جنود العروبة على اعتاب الفضــاء كانوا أم فى غيابات الخضم الزاخر .

اليهم جميعـــا حيثما كانوا ، فى صـــحارى الجـزائر ، أو على قمم صرواح ، أو فى تيـــه سيناء ، أو على ربى فلسطين الحمراء .

الى هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء .

اقدم مجهودى المتواضع .

لتذكر عسى ان تنفع الذكرى .

عقيد : عمر محمد السرساوى

# تقديم

هناك نواح كثيرة يكتنفها الغموض والابهام فى تاريخ بلدنا فى القرون الوسطى وخصوصا تاريخ الأيام التى سيطر فيها المماليك على مصر وأنشئوا بها دولتين لهم عاصرتا أحداثا عظيمة ليس فى تاريخ مصر فقط ، ولكن فى تاريخ البشرية جمعاء ، أخص بالذكر منها الحروب الصليبية فى مراحلها الأخيرة ، واندفاع السيل المغولى المدمر من أواسط آسيا ليجتاح العالم المتمدين فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما بدأ أيضا فى تلك الآونة استفحال خطر الاستعمار الأوربى فى افريقية وآسيا .

ولن يتطرق بحثنا هذا الى كل تلك الأحداث الكبرى ، وانما سأمس منها موضوعا واحدا من ناحية واحدة وهو موضوع الحروب الصليبية فى مراحلها الأخيرة خصوصا تلك الفترة التى اندلعت فيها نار الحرب بين مملكة قبرص ومصر المملوكية .

ولعل ما دفعنى الى هذا هو أن الكثيرين من مثقفينا يعتقدون أو يظنون أن الحروب الصليبية انما تدور حول معارك صلاح الدين الأيوبى وكفاحه ضد ريتشارد قلب الأسد وما تلا ذلك من هجوم لويس التاسع على المنصورة وأسره فى بيت ابن لقمان سنة ١٢٥٢م، ثم هجوم مصر على الامارات الصليبية فى الشام بقيادة الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل الذى سقطت على يديه عكاء آخر معاقل الصليبيين وكان ذلك سنة ١٢٩٢ ميلادية .

واليوم أقدم للقراء صفحة عجيبة تكاد تكون منسية من الحروب الصليبية تتلخص فى نشوب حرب فعلية اندلع لهيبها بين قبرص ومصر فى أواخر القرن الرابع عشر ، ولقد يعجب البعض لقدرة جزيرة صغيرة كقبرص على شن حرب بحرية برية على دولة عظيمة كمصر ، والواقع أن هذا حدث فعلا ، وقد تدمى البعوضة ، كما قيل ، مقلة الأسد .

ولعل ما دفعنى لاختيار هذا الموضوع بالذات للكتابة فيه وتسليط الضوء على أحداثه المؤسفة أن الاسكندرية العزيزة عروس البحر المتوسط تعرضت على مر السنين واختلاف العصور لعدة غارات من أقوام وشعوب مختلفة :

ففى سجلات الزمن جاء ذكر سقوط الاسكندرية فى قبضة الرومان بعد معركة اكتيوم البحرية سنة ٣١ ق.م.

ثم أغار العرب عليها بقيادة عمرو بن العاص بعد ذلك بسبعة قرون .

وتلا ذلك غارة الصليبيين على الاسكندرية ودفاع صلاح الدين الأيوبى عنهـا ابان الصراع الذى نشب بين شـاور وضرغام فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر .

ثم نزول الفرنسيين بقيادة بونابرت على هذه المدينة فى أول القرن التاسع عشر ، وضرب الانجليز لها بقنابل أسطولهم سـنة ١٨٨٢ م .

وبالطبع كانت الاسكندرية تقـاسى من ويلات الحرب ألوانا مختلفة من الخراب والدمار على يد الغزاة المتعاقبين ، ولكنها لم تر من التقتيل والتخريب ولم تقاس من السيف والنار مثل ما قاسلت بسبب حملة الصليبيين بقيادة بطرس دى لوسـيان ملك قبرص ١٣٦٥ م .

حقا لم تر الاسـكندرية طوال عمرها المديد منذ أنشـأها الاسكندر المقـدونى مثل تلك المحنة التى نزلت عليها كنازلة من السماء وخلفتها ركاما وحطاما وجثثا وأشلاء كأن ديارها قد جاست خلالها أبالسة الجن وأهلها قوم قد مستهم الصيحة .

فاليك أيها القـارىء العربى تلك القصـة الفريدة ، بل تلك المأساة المؤلمة !

## ١ ـ غرض الحملة

كان سقوط الاسكندرية في يد الصليبيين عام ١٣٦٥ م وضياعها منهم عقب الاستيلاء عليها بسبعة أيام من أهم أحداث الحروب الصليبية في النصف الأخير من القرن الرابع عشر الميلادى ، وهو أيضا أهم حدث امتاز به حكم الملك بطرس دى لوسنيان الأول ملك قبرص . وكما كان له تأثير كبير على العلاقات بين الشرق والغرب بصفة عامة كان له أيضا أخطر الآثار على العلاقات بين مصر وقبرص بصفة خاصة ، ولا غرو فنهب مدينة كبيرة في مثل ازدهار الاسكندرية ومنعتها سبب في نفوس المسلمين من مرارة وأسى بقدر ما سبب في نفوس المسيحيين في أوربا من ابتهاج وغبطة ، فازداد سلاطين مصر حقدا على ملوك قبرص وأخذوا يعدون العدة لضرب هؤلاء الملوك ضربة انتقامية فاقت تلك التي وجهها هؤلاء السلاطين لملك أرمينية ( ليو السادس ) وانتهت بالقضاء على مملكة أرمينية وضمها نهائيا لمصر في أواخر القرن الثالث عشر .

وكان التجهيز لهذه الحملة قد انتهى فى سبتمبر سنة ١٣٦٥م وكان أسطول الصليبيين المكون من خمس وستين ومائة سفينة كبيرة وعدد مماثل من السفن الصغيرة وناقلات الجند والخيل — كان هذا الأسطول الضخم ملقيا مراسيه فى مياه جزيرة رودس ملتقى القوات الصليبية المتحالفة ضد مسلمى الشرق .

وكانت خطة الغزو قد وضع تفاصيلها بدقة فائقة وسرية تامة ملك قبرص واثنان فقط من كبار ذلك العصر وهما المندوب البابوى « بيير دى توماس » ومستشار ملك قبرص الشخصى « فيليب دى ميزير » وقد ظلت هذه الخطة فى طى الكتمان ضمانا للسرية ، ولم يعرف أحد من رجال الحملة وجهتها الا بعد اقلاع الأسطول وامعانه فى الابحار بوقت ليس بالقصير .

ذلك أن الملك بطرس كان لا يثق فى حلفائه من أمراء الامارات الايطالية وخصوصا امارة سان مارك . فكان « الدوج » وهو لقب أمير البندقية « فينيسيا » قد كلف بعض رجاله من المنضمين لجيش الملك بطرس بأمر البابا أن يوالوه بأنباء تحركات هذه الحملة حتى يمكنه الاتصال بسلطان مصر عند الضرورة لابلاغه ما يتهدد بلاده من أخطار حفاظا على حسن العلاقات بين كثير من الامارات الايطالية ذات المصالح التجارية المشتركة مع مصر وبين سلطانها ، وكان ذلك السلطان قد منح كثيرا من الامتيازات التجارية تلك الامارات بموجب اتفاقات تم عقدها فى الظلام ومن وراء ظهر

البابا الذى كان قد فرض على دول أوربا الصليبية عدم التعامل التجارى مع دول المسلمين كنوع من الحصار الاقتصادى .

وأخيراوفى صباح يوم السبت الموافق ٤ من أكتوبر سنة ١٣٦٥م. استقل جيش الصليبيين السفن التى أقلعت به من شواطىء رودس بين دعوات الأهالى وتراتيلهم وقرع أجراس الكنائس . وقد ودعت الجماهير المحتشدة على الشاطىء تلك السفن بالهتافات ثلاثا بما نصه :

« عاش ، عاش بطرس ملك القدس وقبرص ضد الشرقيين الكفرة !. » ، وكان الصليبيون يردون على ذلك الهتاف بصيحة الحرب التى اتخذوها شعارا وهى « هكذا أراد الله ! »

واندفعت السفن أمام الرياح فى اتجاه الشرق امعانا فى التضليل عن وجهتها الحقيقية حتى وصلت الى منتصف المسافة بين رودس وقبرص بحذاء الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، ثم استدارت فجأة صوب الجنوب فى اتجاه الاسكندرية وعندئذ فقط أعلن هدف الحملة رسميا فى جيش الصليبيين .

واستغرقت رحلة أسطول الصليبيين عبر البحر خمسة أيام ليظهر بعدها يوم الخميس الموافق ٩ من أكتوبر فى منتصف النهار أمام شواطىء الاسكندرية .

## ٢ ـ أسباب اختيار الاسكندرية هدفا لحملة الصليبيين

يقول المؤرخ المصرى الذى عاصرَ أحداث هذه الحملة وهو محمد بن قاسم بن محمود النويرى الاسكندرانى فى كتابه « الأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية » ان سبب نزول الصليبيين على المدينة كان لعدة عوامل أجملها فى الآتى :

١ ـ كان الصليبيون يزعمون قيام اضطهاد للمسيحيين الشرقيين فى مصر والشام بأمر من سلطان مصر وأن حملتهم على الاسكندرية ليست الا تأديبا لذلك السلطان الجائر .

٢ ـ رفض سلطان مصر طلب بطرس ملك قبرص بالسماح للأخير بتتويج نفسه ملكا على قبرص فى مدينة صور بالشام كما كانت تقضى بذلك تقاليد البلاط القبرصى .

٣ ـ كان الصليبيون يعلمون أن حكام مصر فى شغل شاغل بسبب الاضطراب السياسى الذى كان يعم البلاد فى ذلك

الحين ، عن الاهتمام بأمر الدفاع عن الشواطىء المصرية ، كما أثبتت ذلك غارات القراصنة الغربيين أكثر من مرة على مدن الساحل مما أطمع الصليبيين فى أن مدينة الاسكندرية ستكون فريسة سهلة المنال لمن يوطد العزم على غزوها .

٤ ــ حدثت غارات سابقة بمعرفة قرصان البحر على مدن رشيد وأبى قير وضواحى الاسكندرية ثبت خلالها أن الدفاع عن تلك النواحى كاد يكون شكليا فقط ، وأن هذه الغارات قد حققت أغراضها جميعا بنجاح تام .

٥ ــ قيام الشعب السكندرى ذات يوم بمحاولة للفتك بالجاليات الأجنبية بالمدينة لاعتقاده أن هذه الجاليات ما وجدت الا لنهب واستغلال اقتصاديات البلاد ، هذا بخلاف أنه قد ثبت لهذاالشعب ، فى أكثر من مناسبة ، ان الكثيرين من هؤلاءالقناصل التجاريين للدول الأوربيــة بالمدينــة كانوا يعملون كعيون وجواسيس لقراصنة البحر الغربيين ، وقد دعا سلوك الأجانب المريب وكثرة خروجهم ليلا الى الشواطىء المجاورةلمدينة الاسكندرية فى مهام غامضة ــ دعا ذلك حاكم المدينة لأن يصدر أوامره بأن تغلق بيوت الأجانب فى المدينة عليهم فى الغروب من كل يوم ويفرج عنهم صباح اليوم التالى .

وكانت أوربا فى القرن الرابع عشر تعج بدعاة الحروب الصليبية ضد مسلمى الشرق ، وكان منهم أكثر من داعية يشير

فى رسائله وخطبه الى ضرورة الاستيلاء على ثغر الاسكندرية كمغنم للمسيحية ، فقد كانت عروس البحر فى تلك الأيام أكبر مدنه وأغناها ، وكان بها الممثلون التجاريون لمعظم دول ذلك العصر شرقا وغربا . وكانت المكوس الجمركية تمثل ركنا هاما فى خزينة السلطان التى ينفق منها على جيشه وهو تلك الأداة التى انتزع بها بيت المقدس من الصليبيين وطهر منهم شواطىء الشام وعلاوة على حرمان السلطان من ذلك المورد الضخم كانت الاسكندرية غنيمة دسمة لمن يفوز بفتحها .

ومما داعب خيال أمم الغرب أيضا أن الاسكندرية بموقعها الاستراتيجى المتوسط كانت ستهيىء لفاتحها الصليبى قاعدة متوسطة يقطع منها طرق التجارةعلى المسلمين فى غدوهمورواحهم عبر البحر من شرقيه الى غربيه وبالعكس .

وعلاوة على ذلك فاذا سقطت هذه المدينة فى يد الصليبيين فانه يمكن باستخدامها كرأس جسر لهم على الشاطىء الافريقى وتكديس المؤن والعتاد بها ودفع أية قوة عسكرية منها للاغارة على الدلتا وربما القاهرة ذاتها وهى المدينة التى سلبت البابوية فى روما حق التحكم فى الأراضى المقدسة .

وبالطبع لم تكن كل هذه الاعتبارات السابق ذكرها لتغيبعن ذهن الملك بطرس دى لوسنيان ، وكان مما ساعد ذلك الملك على تنفيذ خطته سوء الأحوال كافة فى مدينة الاسكندرية فى ذلك

الوقت ، علاوةعلى وقوفه على أسرار الدفاع عن المدينةبجواسيسه من رجال الجاليات الأجنبية كما سبق أن بينا ، وكذلك من بعض العملاء والخونة ممن كانوا يعملون فى ديوان الجمرك وعلى اتصال مستمر بهؤلاء الأجانب •

وكان مما ساعد الغزاة على تحقيق مأربهم بغزو المدينة فى ذلك الوقت عاملان :

١ ــ غياب حاكم المدينة وكان فى ذلك الوقت « خليل بن صلاح الدين بن عرام » الذى كان يؤدى فريضة الحج ، وكان جزء كبير من حامية المدينة فى حراسة قافلة الحجاج التى خرجت مع الحاكم فى تلك السنة ، اذ لم يكن يخطر ببال أحد من المسئولين فى المدينة أن بلدهم قد تصبح عرضة للغزو خصوصا أنه قد سبقت تلك الأيام فترة طويلة لم تتعرض الاسكندرية ذاتها خلالها لأى عدوان خارجى •

٢ ــ كان الوقت صيفا وأفرع النيل الكثيرة المنتشرة على وجه الدلتا فى فترة الفيضان وشبكة الترع فى الدلتا كلها مغمورة بالمياه ، ولم يكن من السهل تحرك أية قوات عسكرية تخرج من القاهرة لنجدة الاسكندرية مجتازة هذه الموانع الطبيعية بالسرعة اللازمة •

وكان ذلك بجانب سوء الأحوال الداخلية فى مصر كلها ، فلم يكن على البلاد سلطان قوى يصد قوى العدوان عن مصر

ولا الحزم الكافى لقيادة الشعب فى أية حرب : فكان سلطان مصر وقتئذ صبيا لايتجاوز الحادية عشرة من عمره وهو الاشرف نصير الدين شعبان الذى كان ألعوبة فى يد وزيره « الأمير يلبغا الأتاكى » أقوى أمراء المماليك فى ذلك الوقت .

ومع ذلك فقد كان الملك بطرس يضع فى حسبانه أو يتوقع صعوبة الاستيلاء على مدينة الاسكندرية ، ولاغرو فمنعة أسوارها وتحكم ابراجها وضخامة أبوابها كانت معروفة لدى دول العالم المسيحى منذ قام الصليبيون بحصارها من مائتى سنة وكان يدافع عنها وقتئذ صلاح الدين يوسف بن أيوب .

## ٣ ـ وصـــول الحمـــلة
## وانزالها والمناوشـــات الأولية

بعد ظهر يوم الخميس ٩ من اكتوبر سنة ١٣٦٥ م تقدم الملك بطرس بأسطول الصليبيين ودخل ميناء الاسكندرية القــديم « الغربى » بمنتهى الحذر . وكان يمكنه انزال قواته فى ذلك اليوم لولا خوفه من حلول الظلام قبل الانتهاء من عملية الانزال الكامل لهذه القوات . فماذا يكون الموقف لو حلت العتمة ونصف قواته على البر ونصفها الآخر على ظهر السفن ؟ .

لذلك اكتفى الملك فى ذلك اليوم بارسال أحد القــوارب وبه بعض الكشافة فى اتجاه الشاطىء عسى أن يأتوه ببعض أخبار القوم ، ولكن هذا القارب عاد أدراجه بعد قليل تشيعه عاصـفة من سهام المسلمين وأحجارهم ، فأمر الملك بطرس بعدم الاقتراب من الشاطىء المصرى فى تلك الليلة وربط كل سفنه بعضها الى بعض وقبع الصليبيون فــوق سفنهم فى تلك الليلة فى انتظــار صباح الغد .

وكان الكثيرون من المصريين يظنون أول الأمر أن تلك السفن المتكتلة فى وسط الميناء انما جاءت للتجارة ، ولكن اتخاذها لذلك التشكيل العجيب فى وسط الميناء دون الاقتراب من الشاطىء أيقظ فى نفوسهم عوامل الشك والريبة ، وما أن أرخى الليل استاره حتى علقت القناديل والمشاعل وأضيئت المنارات على أسوار المدينة خشية أن يحاول العدو التسلل الى داخلها تحت جنح الظلام .

وما ان أشرقت شمس يوم الجمعة ١٠ من اكتوبر سنة ١٣٦٥م حتى هرعت جموع كثيرة من الاهالى الى شبه جزيرة فاروس لعقد سوق الجمعة فى هذا المكان كالمعتاد من كل أسبوع ، كما وافق ذلك أيضا خروج النسوة واهالى الموتى لزيارة القبور وكان خروجهم فى ذلك اليوم من باب القرافة ( وهو أحد أبواب المدينة فى ذلك الوقت ) لهذا الغرض .

ومن ذلك يتضح أن الشاطىء كان يعج بالحركة والنشاط وكانت تلك الحشود التى خرجت من باب القرافة فى ذلك اليوم ضعف ماكان يخرج منه فى الاحوال العادية اذ صاحب خروج مرتادى سوق الجمعة وزائرى القبور من نساء ومقرئين عدد كبير من الأهالى الذين لم تفتهم أحداث الأمس فى الميناء فهرعوا مع الخارجين من المدينة الى الشاطىء يدفعهم حب الاستطلاع لمشاهدة سفن الفرنجة المتكتلة فى وسط الميناء متخذة ذلك التشكيل العجيب الذى لم يكونوا قد عرفوه ولا من قبل تبينوه . ولم يكن

لهؤلاء الاهالى الابرياء سابق دراية بالحـرب واهوالها ، ولم يدر يخلد أحد منهم فى ذلك اليوم المشئوم انهم على شفا كارثة رهيبة

وبعد قليــل لحق بالاهالى عــلى الشاطىء ماتبقى من حامية المدينة التى لم يزد على بضع مئات من عرب البدو بغرض منع العدو من انزال قواته على الشاطىء اعتمادا على ضخامة أسوار المدينة ومنعتها .

وبالطبع لم يكن هناك وجه للمقــارنة بين هــؤلاء البــدو وأسلحتهم البدائية وبين فرسان الصليبيين ومعــداتهم الحديثــة بالنسبة لذلك العصر : فلم يكن هؤلاء الأولون لابسين أية دروع ولا حتى من نوع قمصان الزرد ، فكان كل ما بأيديهم لم يزدعلى بعض السيوف المقــــوسة والقسى والرماح ، وغير مرتدين الا ملابسهم العادية من عمائم وقفاطين وسراويل فضفاضة .

ونظرا لتغيب حاكم المدينة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ لم يكن على رأس القوم أى رجل له سلطة أو كلمة مسموعة ليـــأمرهم بأن ينشدوا الأمان والسلامة داخل أسوار المدينة ويأمربتجهيزها للدفاع .

نعم ، كان هناك نائب للحاكم ، ولـــكنه كان رجلا طاعنا فى السن يرعش كبرا وهو الأمير المملوك « شنجرة » . وتصــادف وجود بعض التجار المغاربة بالمدينة وكانوا قد وفدوا عليهايحملون تجارتهم من الجوز واللوز وزيت الزيتون ، فلم يفطن الى نيــة

الغزاة من أهالى المدينة غير هذه الفئة من التجار المغـاربة ، لأن الفرنجة كانوا قد أغاروا غارة منيت بالفشل على سواحل تونس والمغرب قبل ذلك ببضع سنين ، فلما تقدم أحد هؤلاء التجـار وهو « عبد الله المغربى » الى الأمير « شـسنجرة » مبديا النصح بضرورة اتخاذ أى اجراء يحتم على الأهالى ضرورة فض السوق واخلاء الشاطىء والاحتماء بأسوار المدينة عارضه الكثيرون من التجار أهالى المدينة الذين لهم مخيمات ( وشـوادر ) خـارج الأسوار بحجة ان ذلك سيفوت عليهم فرصة الربح يوم السوق المنتظر من كل أسبوع ، وانضم الأمير « شـسنجرة » الى رأى الآخرين ، وقاتل الله الجهل ! وكل ما اتخذ من اجراء لمواجهـة الخطر الماثل لم يزد عن اقفال المداخل الثلاثة للباب الأخضر المواجه للميناء القديم .

وما ان حلت الساعة التاسعة صباحا بتوقيتنـا الحـالى حتى بدأت سفن العدو فى الاقتراب من الشاطىء ، فهـرع نفر من البدو والأهالى المسلحين وخاضوا فى الماء محاولة يائسة لابعـاد السفن عن الشاطىء ، ولكن وقوفهم فى الماء حتى أوساطهم عاق حركتهم وجعلهم فريسة سهلة وأهدافا ثابتة لسهام الصـليبيين التى انهالت عليهم من جوانب السفن ومزاغلها فقضى على هؤلاء الأبطال فى وقت قليل . وأخذ الصليبيون ينزلون الى الشـاطىء مشاة وركبانا ، وكان مندوب البابا « بيير دى توماس » يقف فى شرفة بارزة من جانب سفينة الملك بطرس وبيده صـليب كبـير

يستمطر به من السموات البركة على رءوس الصليبيين وهم ينزلون الى أرض المسلمين «الكفرة» ليقتلوا وينهبوا ويرتكبوا أشنع ما سجله التاريخ من جرائم باسم المسيح ! والله وحده يعلم كم كان المسيح عيسى بن مريم نبى الله ورسول السلام بريئا مما يفعلون !..

وبينما كان يحدث هذا فى الميناء الغربى كان جزء من الأسطول قد توجه عقب انفصاله عن القسم الرئيسى من السفن الى الميناء الشرقى حيث قام بانزال فرسان الهوسبتالية بقيادة « فرلينو دى اراسكا » .

وهكذا انحصر الأهالى التعسون من باعة ومشترين ونسوة ومتفرجين وكل تلك الجموع التى كانت على شاطىء شبه جزيرة فاروس بين قوتى الصليبيين اللتين نزلتا فى الميناءين الشرقى والغربى وهم بعيدون عن اسوار المدينة عزل من أى سلاح . ثم دارت المذبحة !.

انه من السهل اليوم على أى انسان أن يتصور ما حدث فى ذلك اليوم : كان هناك فرسان مدرعون من قمة الرأس الى أخمص القدم وبأيديهم كل أنواع أسلحة ذلك العصر من سيوف الى حراب الى بلط الى قضبان حديدية وكرات شوك ، وكان يقابل هؤلاء قوم عزل عرفت عنهم الوداعة والطيبة وحب السلام، وطبعا شق العدو المتفوق عددا وعدة طريقه بسهولة الى أسوار

المدينة دافعا امامه تلك الجموع وهو يوسعهم ذبحا وتقتيلا حتى قضى على كل من كان على شاطىء البحر فى ذلك اليوم ، ولم ينج منهم الا من أدرك أبواب المدينة قبل اقفالها فى وجه الغزاة !

وقبل نهاية النهار وعلى أشلاء الجثث المكدسة على شاطىء الاسكندرية الدامى عقد الصليبيون مجلسا حربيا للتشـــاور فى أمر ما يجب عمله خصـــوصا أنه قد انتهى اليـــــوم ولم يكسب الصليبيون شيئا لأن المدينة بقيت كما هى مغلقة أبوابها شـــامخة أبراجها وأسوارها فى وجوههم . وفى هذا المؤتمر عبر الكثيرون من أمراء الصليبيين وكبارهم عن وجهة نظرهم وأبدوا رأيهم فى الحملة لأول مرة ، ولاسيما قادة الفرق الذين تعمد الملك بطرس اخفاء وجهة الحملة وهدفها عنهم وهم من امارات البندقية وجنوة وبيزة والأرجون ، وهؤلاء كانوا على علاقات طيبة مع ســـلطان مصر كما سبق أن بينـــــا ، فأبدى هؤلاء رأيهم بضرورة انهاء العمليات الحربية والاقلاع عن شواطىء مصر قبل أن يصل الجيش المصرى ويفاجىء الصليبيين فى العراء خارج أســـوار المدينـــــة وبخاصة أن ضخامة هذه الأسوار ومنعتها أوحت اليهم بأن سقوط المدينة لن يكون فى وقت قريب .

عندئذ هب المندوب البابوى واقفا واستل سيفه بيمينه ورفع الصليب بشماله وألقى فى الحاضرين خطـــابا مؤثرا بصـــــوته الجهورى مذكرا اياهم بتعاليم البابا أوربان الثانى داعية الحروب

الصليبية الأول فى مؤتمر كلــيرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ حين قال :

« اذا انتصرتم فبركة من السماء وممالك الشرق من نصيبكم» ثم توعد القاعدين منهم عن مواصلة الحرب بلعنة الكنيسة الأبدية والحرمان من الغفران حتى يوم القيامة !

ثم وقف الملك بطرس وحسم الخلاف بالاعــلان عن مكافأته لأول فارس صليبى يعلو أسوار الاسكندرية بمبــلغ قدره ألف فلورين ذهبا والثانى بخمسمائة والثالث بثلاثمائة وأشـــار على الحاضرين بأن المدينة يجب أن تسقط باقتحامها بأن يحمل عليها جيش الصليبيين كله من عدة جهات فى وقت واحد .

ولنترك الغزاة الآن فى مؤتمرهم على شاطىء الاســكندرية لنرقب ما يحدث داخل المدينة المحاصرة .

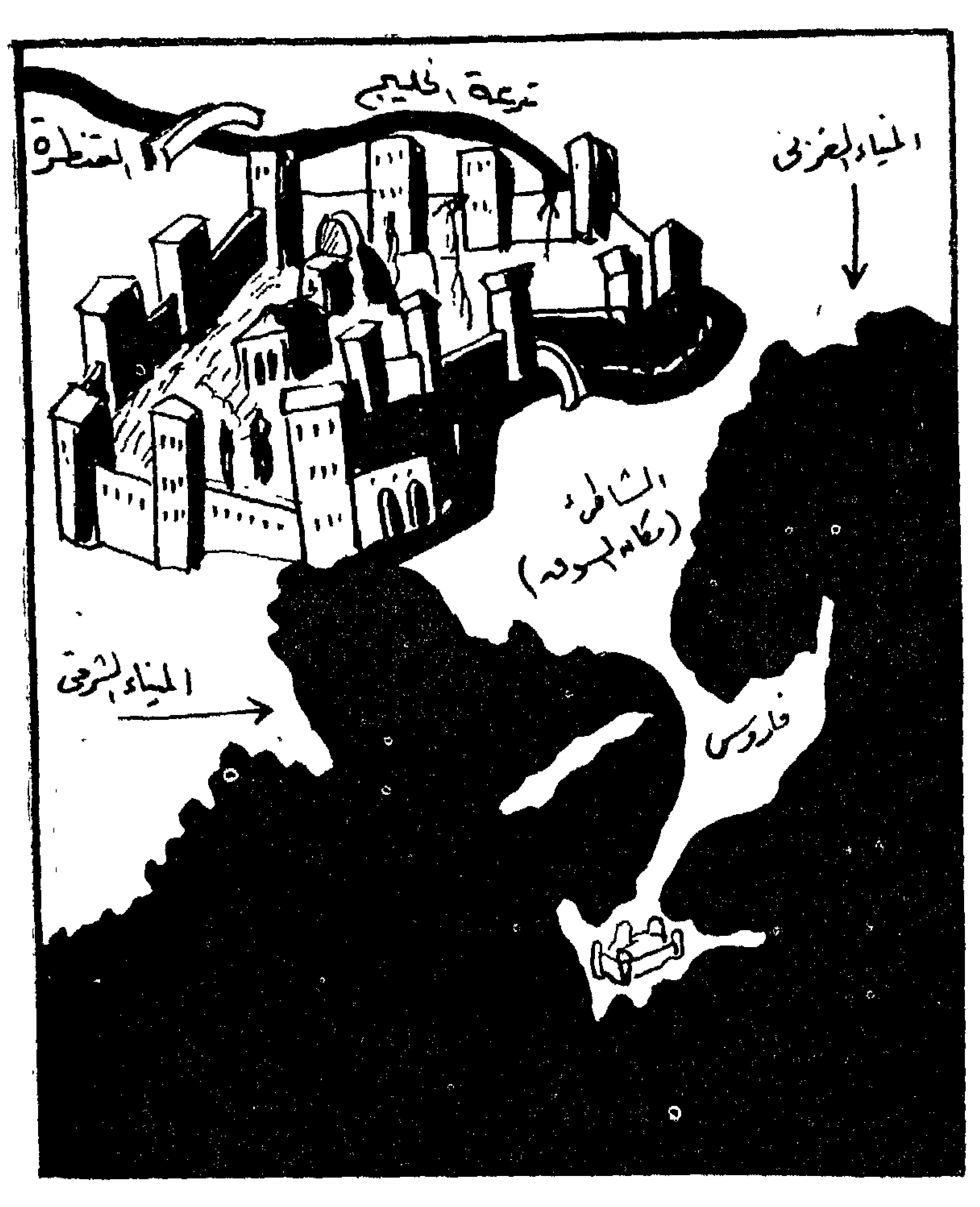
كان نائب حاكم المدينة ورجاله مشغولين بانقاذ الموقف الذى كان يتدهور بمرور ساعات النهار ، فصار توزيع المتبقى من حامية المدينة والمتطوعين من الأهالى على أسوارها الشـمالية المقــابلة لجزيرة فاروس وعلى ضلع سورها الغربى المواجه للميناء القديم حيث أسطول الصليبيين ، كما صار تركيز وحدات ( المدفعيــة ) وكانت فى ذلك الوقت المنجانيق على أبراج باب البحر .

وعلاوة على ما تقدم فقد جمع شنجرة عددا من البغـــال والجمال وحمل عليها صناديق مال ديوان الجمرك من ذهب وفضة

وكانت تمثل خزينة امارته ، وأرسلها من باب سدرة فى حراسة قوة مناسبة من الجنود الى القاهرة .

اما الاجراء الثالث والأخير الذى اتخذه شنجرة فكان القبض على جميع قناصل الدول والأجانب من التجار توطئة لارسالهم الى دمنهور كرهائن حتى ينجلى الموقف مع الغزاة ، فلما أبدى بعضهم شيئا من المقاومة أمر شنجرة بقطع رأس كبيرهم فأذعن الباقون للأمر وخرجوا فى حراسة قوية الى جهة دمنهور .

وطارت حمامات الزاجل الى القاهرة تحمل كل منها أنباء القتال وتطورات الموقف أولا بأول الى كل من السلطان فى سرياقوس حيث كان ، والى وزيره يلبغا الأتابكى فى القاهرة .




خريطة قديمة لمدينة الاسكندرية فى القرن الرابع عشر
« محفوظة بالفاتيكان بايطاليا »

## ٤ ـ نظـــام الدفاع عن مدينــة الاســـكندرية فى القـــرن الرابع عشر ..

( ارجع الى خريطة الاســـــكندرية فى القرن الرابع عشر فى الصفحة السابقة ) .

قدر المؤرخ النويرى الاسكندرانى سكان مدينة الاسكندرية فى ذلك العهد بعشرين ألفا ، وكانت المدينة محاطة بسور ضخم ذى أبراج عالية ، وكانت ترعة الخليج ( مكان الترعة المحمودية الآن ) تلتف حول السور من ثلاث جهــات وهى الجنـــوب والغرب والشمال حتى تصب فى الميــنــاء الشرقى ، وكانت هذه الترعة بوصفها هذا تعتبر مانعا طبيعيا يمنع أو يعطل اقتراب العــدو من أسوار المدينة ، وكان بهذه الأسوار عدة أبواب .

ففى الوجهة الشمالية لها كانت أبواب الديوان وباب البحر والباب الأخضر .

وكان فى الوجهة الغربية باب الخوخة وباب القرافة .

وفى الجنوب كان باب الزهرى وباب سدره ، وكانا يسميان ببابى البر ، أما من ناحيــة الشرق فلم يكن بالأســوار غير باب رشيد .

وكان الدفاع عن المدينة وهى بصدد تلك الأحداث متركزا على الركن الشمالى الغربى من سور المدينة لقلة الحـامية المدافعة ولمواجهة هذا الجزء من السور لأسـطول الصـليبيين الراسى بالميناء القديم ( الغربى ) .

وكان هذا النظام فى الدفاع بالنسبة لقلة الحامية نظاما جيدا لولا ثغرة صغيرة به لم يحسب لها حساب ، ألا وهى ثغرة الخديعة والحيلة ، وهى وسيلة كان يجيدها العدو ورتب لها وعمل لهـا ألف حساب .

فقبل اقلاع الملك بطرس من قبرص بأسابيع عدة اتصل عملاؤه من الجاليات الأجنبية بأحد الخونة ممن يعملون فى ديوان الجمرك واسمه شمس الدين بن غراب واتفقوا معه على أن يساعد جيش الملك بطرس اذا غزا الاسكندرية على دخولها نظير عدة أكياس من الذهب تاركين له حرية اختيار الطريقة ، فاتفق هذا الخـائن مع عميل آخر يبزه فى الخيانة والغدر اسمه شمس الدين بن عديبـة ورسما بينهما خطة الخيانة وأرسلا تفاصيلها الى الملك فى قارب يملكه احد القبارصة .

فلما أقبلت حملة الملك بطرس أمر شـمس الدين بن غراب

باقفال أبواب الديوان الداخلية ( من ناحية المدينة ) بحجة خوفه من استيلاء التجار على بضائعهم المكدسة فى ديوان الجمرك دون دفع المكوس الجمركية المستحقة عليها ، وباقفال ابواب الديوان الداخلية يستحيل صعود المدافعين الى أعلى سور باب الديوان الخارجى حيث السنلم الموصل الى هذا الجزء من السور من داخل الديوان ذاته . فلما رفع الملك بطرس وجهه الى أبراج باب الديوان ولم يجد فيها أحدا من المدافعين ، لا فيها ولا على السور، أيقن أن ما استعصى الحصول عليه بالقوة سقط فى حجره بالحيلة والخديعة ، فأصدر أمره فى الحال للفارس برسيفال دى كولونى بتوجيه الهجوم الرئيسى وتركيزه على باب الديوان مع القيام بعملية هجوم خداعى على باب البحر ليجذب انتباه المدافعين الى هذه الناحية الأخيرة .

## ٥ ـ اقتحام المدينة وفــرار الأهــالي

بدأ الهجوم على أسوار مدينة الاسكندرية بتنفيــذ الجزء الخداعى من خطة هذا الهجوم ، فما ان اقتربت قوة الصليبيين المنوط بها اقتحام باب البحر من جزء السور الذى به هذا الباب حتى انهالت عليها سهام المصريين وقذائف منجنيقاتهم وكتــل الحجارة والنفط المشتعل حتى أجبرت هذه القوة على الفرار الى جزيرة فاروس تاركة عددا كبيرا من القتلى وبينها عدد أكبر من الجرحى والمصابين.

ثم عاود الصليبيون الكرة بمحاولة أخرى لاقتحام باب البحر بدفعهم لسفينة بأطراف حرابهم وهى محملة بشحنة من النفــط المشتعل لصدامها بالباب لحرقه ، ولكن سهام المصريين ومقذوفاتهم فتكت فتكا ذريعا بالقائمين بدفع هذه السفينة فتخلى الأحياء من هؤلاء الاخيرين عن المحاولة ، وولوا الادبار تاركين الســفينة

المشتعلة طعمة للنيران على مسافة بعيـدة من البـاب الذى لم يمسسه سوء .

وبينما كان القتال دائرا ناحية باب البحر كان الجزء الأكبر من جيش الصليبيين والمنوط به الهجوم على باب الديوان يقترب من هدفه ومعه بعض سلالم الاقتحام الخشبية على حين كان المدافعون عن المدينة مشغولين عن ذلك بالأحداث الجارية عند باب البحر ، فصعد بعض الفرسان الصليبيين الى أعلى السـور فوق باب الديوان ، فى حين شغل بعضهم بصب النفط على الباب ذاته بغية حرقه ، وما ان اندلعت ألسنة اللهيب فى باب الديوان وأخـذت تحرق أعلى السور وملأ الدخان الاسود جنبات السماء حتى تنبه المدافعون عند باب البحر الى حقيقة خطة العدو وفطنـوا للخطر الداهم ، ولكن كيف الوصول الى ذلك الجزء من سور المدينـة والديوان مغلقة أبوابه فى وجوههم ؟ عندئذ أيقن أهل المدينة أن اليوم الذى بدأ لهم سينتهى عليهم ، فسرت فى النـاس موجـة مسعورة من الذعر المدمر وعمت الفوضى وبدأ الجميع يستبقون أبواب البر فى جنوب المدينة طلبا للنجاة.

وليس هناك من هو أصدق وصفا لهذا الموقف العصيب من المؤرخ الذى عاصر أحداث ذلك اليوم وهو محمـد بن قاسم ابن محمود النويرى الاسكندرانى فى كتابه « الأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية » الذى يقول فيه :

ان بعض الأهالى حاولوا الخروج من المدينة عبر الأسوار بحبال ربطوها فى أعلى السور وأدلوها الى الخارج ، ونظرا لما تملك الكثيرين منهم من الذعر والهلع كان هؤلاء الأخيرون لا تقوى أيديهم على القبض على هذه الحبال عند التدلى عليها ، فسقط الكثيرون منهم عند المحاولة وكسرت عظام بعضهم ولاقى حتفه منهم عدد غير قليل ، ولجأ الكثيرون ممن أسعدهم الحظ بالخروج من المدينة الى قريتى البسلقون والقريون ، كما اندفع الكثيرون الى الحقول والمزارع وعلى الطريق المؤدى الى القاهرة ، وكان الجميع فى حال من البؤس لا يوصف وفى موقف من اليأس لا يطاق .

ولزيادة الموقف شرحا والصورة تلوينا ، لنأخذ مثلا حالة ذلك الرجل الذى جاء ذكره فى كتاب النويرى الاسكندرانى، كان ذلك الرجل قد ترك مسقط رأسه فى الزقازيق واستوطن الاسكندرية قبل ذلك بخمس وعشرين سنة سعيا وراء الرزق من تجارة الاقطان ، فترك الرجل وكالته المكدسة بيالات من القطن فى الاسكندرية ، وأخذ يجرى فى الطريق الى باب رشيد طلبا للنجاة، وكان ذلك الرجل حصيفا عاقلا متزنا فلم يأخذ معه من حطام الدنيا عندما عزم على الرحيل الا ما خف حمله وغلا ثمنه ، ولم يكن هذا الذى خف حمله الا كيسا به ستة آلاف دينار من الذهب جمعها فى ايامه البيض عسى ان تنفعه فى أيامه السود ، وما ان اقترب الرجل من باب رشيد حتى دخل دون أن يدرى فى سيل مندفع من

الاجساد الآدمية التي تزداد تلاحما كلما اقترب من ثغرةالخروج، ولسبب ما سقط من الرجل كيسه فلم يتمكن من شدة الزحام من الانحناء لأخذ مفقوده الغالى ، واستمر مندفعا بلا ارادة ضمن السيل الآدمى الجارف حتى وجد نفسه فجأة فى الحقول خارج الأسوار لا يلوى على شيء وقد ذهب عن جسده معظم ما كان عليه من ثياب عدا قميصه ، وحتى هذا الأخير كان قد قد من خلف ومن أمام ، وطفق الرجل يجرى فى الحقول كالمذهول يلطم خديه تارة ، ويقهقه كالمجنون تارة أخرى ، فلما قابله بعد ذلك بعض البدو الذين اتخذوا من كارثة المدينة المنكوبة فرصةلنهب الفارين لم يجدوا مع صاحبنا شيئا ذا قيمة غير عمامته ، فخطفوها !

## ٦ ـ مذبحة الاسكندرية

سقط باب الديوان فى يد الغزاة فاندفعوا منه وحطموا أبواب الديوان الداخلية ومضوا منها الى المدينة حيث اصطدموا بجماعات من الأهالى المسلحين واشتبكوا معهم فى قتال مرير طوال اليوم، وما أن انتهى الصليبيون من القضاء على تلك الجماعات الباسلة حتى التفتوا الى أهالى المدينة العزل الذين لم تتوافر لهم سبل النجاة وأعمل الصليبيون السيف فى كل من صادفوه من هؤلاء الأهالى التعسين، فلم يرحم شيخ لكبره ولا طفل لصغره، ودنست حرمة المساجد بأبشع الجرائم واستخدمت كاصطبلات للخيول.

ولم يكن فى المدينة مكان للاختفاء فمن نجا من الاهالى من حد السيف أدركته السنة النيران التى كان يشعلها الغزاة باطلاقهم للاسهم المشتعلة على سقوف الدور والحوانيت ، وتملكت الصليبيين حمى مسعورة هى حمى القتل وسفك الدماء أعادت للأذهان مذبحة القدس عند سقوطها فى يد الصليبيين فى أواخر

القرن الحادى عشر وذهب ضحيتها خمسة وستون ألف قتيل .

أمعن الصليبيون فى القتل مدفوعين بشهوة الانتقام أيضا، ولا غرو فانهم كانوا ينتقمون فى ذلك اليوم لهزيمتهم فى حطين على يد صلاح الدين الايوبى سنة ١١٨٧ ولتدمير جيشهم وأسر ملكهم لويس التاسع سنة ١٢٥٢ فى المنصورة وللقضاء على ملكهم نهائيا فى الأرض المقدسة سنة ١٢٩١ م بسقوط عكاء على يد الأشرف خليل بن قلاوون .

وبينما كان الصليبيون منهمكين فى عملية الابادة الشاملة لأهالى الاسكندرية أخذ الملك كوكبة من فرسانه وخرج بهم من المدينة لتدمير أحد الجسور المقامة على ترعة الخليج حتى يعوق تقدم أية قوة تأتى من القاهرة لنجدة المدينة المنكوبة ، وكان الطريق القادم من القاهرة يمر على ذلك الجسر ، فما كاد الملك يخرج بفرسانه من باب سدرة حتى انقضت عليه الجموع الكثيرة من الأهالى الذين كانوا قد خرجوا من المدينة ، وكانت هذه الجماعات مسلحة بالعصي والحجارة كما كان بعضها مسلحا ببعض السيوف والرماح ، فسقط فى هذا الصدام عدد كبير من فرسان الملك وكاد هو نفسه يسقط أسيرا لولا نجدة ممن هرع اليه من أتباعه ، فقفل راجعا الى المدينة ومعه الناجون من فرسانه يجر أذيال الخيبة ، وكان ذلك قبيل الغروب .

أقام الملك الحراس على أبواب المدينة وأسوارها واختلى

بنفسه فى أحد الابراج تلمسا للراحة بعد عمليات عسكريةاستمرت طول اليوم ، وكان الصليبيون قد احرقوا ، غباء منهم ، بجانب باب الديوان كلا من باب سدرة وباب الزهرى وباب رشيد دون التفكير فيما قد يحدث لهم لو قدمت قوات من القاهرة لنجدة الاسكندرية وقامت بحصارها واضطروا هم للدفاع عنها .

وكما ساعد هذا التصرف الأحمق من جانب الصليبيين الكثيرين من الأهالى الذين كانوا يلتمسون طريقا للخروج من المدينة على وجود مخرج لهم من ورطتهم القاتلة — كذلك قد أوجد طريقا للتسلل اليها ، فما كاد الملك يدخل أحد أبراج المدينة للراحة وكان الليل قد أرخى سدوله حتى هب مذعورا من نومه على قعقعة السلاح وأصوات القتال الذى اندلع فى كل أنحاء المدينة وخصوصا فى حى العطارين ، اذ كانت قوة من جنود السلطان ومعها بعض المهاجرين من المدينة قد تسللوا اليها خلال أبواب البر المحترقة فى محاولة جريئة لنجدة المدينة واستخلاصها من يد العدو . واستمر القتال المتفرق غير المنتظم طوال تلك الليلة، ونظرا لقلة قوة المتسللين نسبيا من جهلها التام بأوضاع قوات العدو فى المدينة وأمكنته الاحتياطية فقد باءت هذه المحاولة بالفشل على الرغم مما كابده الصليبيون من خسائر لاضطرارهم للقتال بلا دروع لأن معظمهم كان قد آوى الى مضجعه ثملا بخمور قبرص ونشوة النصر .

وتعرضت المدينة طوال هذه الليلة لعدة غارات من أهلها

الاصليين وان اختلف الهدف فى كل غارة ، فمنهـا ما كان لطـرد الغزاة ، ومنها ما كان لمجرد ازعاج العدو او بقصد الانتقام للبلد والأهل والمال .

وصباح اليوم التالى وبعد ليلة قلقة مملوءة بالمفاجـآت نادى الملك بطرس بعقد مجلس للتشاور فيما يجب عمله على أن يحضره قادة الفرق المختلفة من نبلاء وكبار وفرسان الصليبيين ، وتقـرر عقد هذا المؤتمر على شاطىء فاروس خارج المدينة .

وفى هذا المؤتمر انقسم أصحاب الآراء الى فريقين كل فريق يعارض الآخر على طول الخط .

فالفريق الأول كان ينادى باحتلال مدينـة الاسـكندرية واستخدامها بصفة دائمة كقاعدة برية بحرية للصـليبيين لشن الغارات منها برا وبحرا ضد مصر وباقى دول المسلمين ، وبالطبع كان على رأس هذا الفريق الملك بطرس ومندوب البـابا المدعو بيير دى توماس ومستشار الملك وهو فيليب دى ميزيير ، وكان هذا الفريق يرى ضرورة الدفاع عن المدينة والتمسك بها فى وجه جيش السلطان عند قدومه لتخليصها من الصـليبيين ، فيتحقق بذلك ولو غرض واحد من الأغراض التى جاءت من أجلها الحملة الى مصر .

اما الفريق الآخر المعارض فكان يتكون من غالبيـة الفرق الأجنبية التى انضمت الى جيش قبرص ، وكان على رأس هـذا الفريق الفيكونت دى تورين يؤيده اثنان من أشقاء الملك بطرس

نفسه ، ويظاهره عدد كبير من النبلاء والفرسان بعضهم من حاشية الملك، بل ان ادميرال الاسطول نفسه كان يعارض الملك فى التمسك بالمدينة ، وكان رأى هذا الفريق المعارض يتلخص فى ان جيش الصليبيين ليس من القوة والاستعداد بحيث يستطيع منازلة جيش السلطان أو حتى الوقوف أمامه .

ومما عجل فى اتخاذ القرار النهائى فى هذا المؤتمر أن أصحاب الرأى الأخير المنادين باخلاء المدينة والذين كانوا يزدادون عددا بمضى الوقت حتى انحاز اليهم الكثيرون من أصحاب الرأى الأول وضعوا رأيهم موضع التنفيذ ، وأصدر كل أمير أو نبيل أوفارس منهم أوامره الى أتباعه بترك المدينة واحضار ما بأيديهم من الغنائم والأسلاب الى ظهر السفن المخصصة لهم .

وهنا يجدر بنا الوقوف لحظة لنلحظ أن سبب تغلب أصحاب الرأى المنادى بترك المدينة وتفوقهم عددا انما كان سببه عاملين :

١ ـ ان الحروب الصليبية فى عهودها الأخيرة كانت تتخذ من الدين شعارا وستارا للقيام بعمليات تتسم بطابع القرصنة والمغامرة بعيدة كل البعد عن الغرض الدينى .

٢ ـ ان الوازع الدينى ذاته كان قد ضعف فى الحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر عنه فى القرن الحادى عشر .

ولما تيقن الملك أن أنصاره قلة فى مواجهة معارضيه أمر بنهب المدينة وتخريبها تخريبا شاملا ، وانقضت بقية الأيام السبعة التى قضاها الصليبيون بالمدينة فى هذا العمل . .

## ٧ ـ النهب والسلب والتدمير

ظلت الاسكندرية الحبيبة فى قبضة العدو سبعة أيام عانت خلالها من صنوف التقتيل والخراب والتدمير ما يعجز عن ذكره لسان وعن وصفه قلم، فلا يمكن حصر كل التحف التى خطفت ولا مخازن البضائع والسلع التى نهبت ولا كل الفنادق والمدارس والقصور والمساجد التى دمرت ، فذهبت أحياء برمتها فى حريق الاسكندرية طعمة للنيران التى أضرمها الغزاة !

وفى الواقع لم تر عروس البحر فى تاريخها الطويل وعمرها المديد الذى فاق ألفى عام دمارا وخرابا شاملا كالذى رأته على أيدى بطرس دى لوسيان ملك قبرص وعصابات حملته سنة ١٣٦٥ ميلادية .

وقد وصف النويرى الاسكندرانى تلك الكارثة التى حلت بمدينة الاسكندرية فى كتابه وصفا دقيقا لأنه كان الشاهد العيان

الوحيد الذى كتب فى هذا الموضوع باعتباره أحد الاهالى الذين قاسوا من هذه المحنة وهاجر مع من هاجر منهم وعاد الى مدينته التعسة فور جلاء الصليبيين عنها ..

فهو يروى ان الغزاة نهبوا وحملوا معهم كل ما وصلت اليه ايديهم من ذهب وفضة وكل ما هو مصنوع من المعادن النفيسة، بل كان يكفى أن يكون المعدن لامعا براقا كالنحاس والحديد ليطمع فيه الغزاة ! كما حمل القراصنة معهم كل ما وجد فى المدينة من أقمشة حريرية وصوفية وسجاجيد وطنافس وقناديل وثريات. وجمع الغزاة ما كان فى المدينة من خيل وبغال وجمال وحمير وحملوها بأسلابهم لنقلها الى سفنهم الراسية ، ولما استنفذت تلك الدواب العجماء أغراضها فى خدمة الصليبيين اعملوا فيها السلاح وبقروا بطونها على الشاطىء ، فنفق منها ما نفق، وظل الباقى يئن ويتوجع حتى أجهز عليه المصريون شفقة عليه عند دخولهم للمدينة بعد الكارثة .

وبعد ان انتهى الغزاة من مرحلة السلب والنهب أضرموا النار فى دور المدينة ومخازنها ومبانيها ، ويذكر النويرى ان الصليبيين كانوا يستخدمون لذلك الغرض مادتين احداهما صفراء اللون والأخرى سوداء ، واغلب الظن أن هاتين المادتين اللتين لم يسمهما النويرى لم تكونا سوى الكبريت والقار ، وهما مادتان كانتا تستخدمان ضمن ذلك الخليط القابل للاشتعال والذى كان يعرف بالنار الاغريقية، فكان الصليبيون يطوفون فى الشوارع والحارات ويلقون بهذه المواد على أبواب الدور ويشعلونها ، وكان يطوف

بأرجاء المدينة أيضا جماعات منهم من رماة السهام وكانت مهمة تلك الجماعات اطلاق الاسهم المشتعلة على الأسقف البعيدة والمخيمات التى كانت تغطي واجهات الحوانيت والأسواق مادامت ليست فى متناول الحرق بالوسائل العادية .

وللتدليل على أن الحملات الصليبية فى مراحلها الأخيرة ـ وهذه الحملة التى نحن بصددها ليست الا واحدة منها ـ لم تكن توجه الى بلاد الاسلام عن شعور دينى بقدر ما كانت بدافع القرصنة والسلب والنهب .. للتدليل نلاحظ أن فى هذه الغارة على الاسكندرية لم تفلت فنادق الأجانب وكنائس اقباط مصر أيضا من النهب والسلب والتدمير : فهذه سيدة مسيحية مصرية كانت ابنة لراعى احدى الكنائس واسمه القس « جرجس بن فضاعيل » وقفت هذه السيدة وكانت عرجاء ، فى باب كنيسة والدها رافعة الصليب بيدها متوسلة الى جماعة من الغزاة بالاشارة للكنيسة تارة والى السماء تارة أخرى ، فكان نصيبها ضربة بقبضة سيف على أم رأسها ذهبت بوعيها ، فلما أفاقت المسكينة وجدت كنيسة أبيها قاعا صفصفا ومذبحها ومقاعدها كومات من الرماد ، وبالطبع نهب من الكنيسة قبل تدميرها كل ما كانت تحويه من صلبان وتماثيل وأستار وتحف .

ويروى النويرى أن ما نهب من مدينة الاسكندرية من غنائم وأسلاب حمل عند رحيل الغزاة فى سبعين سفينة ، وكانت السفن فى معظم الأحوال مكدسة بتلك الأسلاب فوق طاقتها . وخوفا من تعرض هذه السفن للغرق عند عبورها البحر اضطر الصليبيون الى

القاء الكثير من حمولات تلك السفن من الغنائم فى البحر امام ابى قير مما دعا حاكم المدينة فيما بعد الى استئجار عدد كبير من الغواصين السكندريين للعمل على انتشال تلك النفائس . وقد ظل العمل مستمرا لمدد طويلة بعد رحيل الصليبيين فى هذا الأمر.

ومن بين ما ارتكبه المجرمون من بربرية وهمجية كسرهم لمخازن الأطعمة والأقوات والمؤن والقاء محتوياتها فى الطرقات ، فكان العسل والسمن والزيت والدقيق مبعثرا فى كل الشوارع والحارات مختلطا بدم الضحايا ، وقبيل رحيل الغزاة مباشرة من المدينة قاموا بحرق باقى أبوابها التى لم يكونوا قد مسوها بسوء من قبل .

وعندما يتحدث النويرى الاسكندرانى عن انفعالاته النفسية عند مشاهدته لمناظر الجثث والضحايا يكاد يتكلم بلسان رجل قد ذهب عقله من هول ما رأى من آثار الوحشية والفظاعة التى عامل بها الصليبيون أهالى المدينة التعسين ، فهو يحكى عن ناظر المدرسة الخلاصية بالمدينة وكان رجلا وقورا كبير السن مهيب الطلعة قال : ان المعتدين القوه من سطح مدرسته الى قارعةالطريق كما تلقى الخرقة البالية !

ويحكى أيضا عن الأطفال الذين مزقت أجسادهم أن كل طفل قسم قسمين نتيجة لشده بمعرفة رجلين كل منهما يجذبه من رجل فى اتجاه مضاد للآخر كما فى لعبة شد الحبل .

وكان الرضيع يمسك من رجليه ويضرب بالحائط مرةومرتين حتى يتطاير مخه ! وكم تراهن جنود الغزاة المتوحشون على من

منهم يمكنه أن يقسم طفلا الى نصفين بضربة واحدة من بلطة !
وكانت النسوة يطعن فى مواضع خاصة من اجسامهن بالسيوف والرماح ويتركن دون الاجهاز عليهن حتى يقضى عليهن الالم والصليبيون يضحكون !

وارتكبت مع الضحايا قبل اعدامها أشنع الجرائم وأبشعها دون اعتبار لجنس أو سن ، فكانت جثث النساء والأطفال التى تغطى الشوارع وعلى سلالم الدور وساحاتها تنطق بأن هؤلاء السفاحين لم يكتفوا بقتل ضحاياهم فقط ، بل ارتكبوا معهم قبل القضاء عليهم أقبح الجرائم ، وبعد موتهم مثلوا بجثثهم أبشع تمثيل !

وتحولت الاسكندرية الجميلة الى بؤرة للوحشة والموت ، اذ كانت كمقبرة هائلة لقوم قد مستهم الصيحة ، تحلق فى سمائها أسراب الجوارح وتهيم بين خرائبها أرواح الشهداء تصرخ طالبة الثأر لكل تلك الدماء التى أريقت والأنفس التى لاقت حتفها .

وحمل الصليبيون معهم خمسة آلاف من الأهالى التعسين كأسرى حرب رهن الفدية وكانوا جميعا من طبقة الأغنياء والتجار بالمدينة الذين تخلفوا عن الرحيل . وقام الملك بطرس فيما بعد باهداء عدد من هؤلاء الأسرى الى كل بلاط فى أوربا ساهم بنصيب فى حملته اعترافا منه بالجميل وتدليلا على انتصاره !

ظل الصليبيون فى المدينة سبعة أيام ، وان الانسان ليعجب اذ كيف يذهب شر سبعة أيام برخاء وحضارة مدينة كالاسكندرية حققته على مدى أجيال طويلة من السلام والرفاهية والتقدم !

## ٨ ــ انســـــحاب الصليبيين من المدينة

وفى يوم الخميس ١٦من اكتوبر سنة١٣٦٥ وجد الملكبطرس نفسه وحيدا على مسرح جريمته الا من نفر قليل من خلصائه ، اذ كانت بقية فرق جيشه قد انسحبت بأسلابها وغنائمها الى سفنها الراسية فى الميناء الغربى منذ يومين فى انتظار الاذن بالرحيـــل ، فنصح المستشارون للملك بأن ينسحب هو أيضـــا الى خيمة ضربوها له على الشاطىء الرملى لشبه جزيرة فاروس خصوصا أن رائحة الموتى قد أخذت تخيم على جو المدينة الخربة وأصـــبحت تزكم الانوف .

وحدث هرج ومرج وحركة غير عادية بين الحرس الصـــليبى المنوطة به حراسة الأسوار على الضلع الجنوبى فوق باب سدرة، وباستطلاع الخبر أبلغ هؤلاء عن رؤية جموع كثيفة من جنـــود السلطان تغطى الأفق على حافة الصحراء ، وان كثـــــرة الاعلام وسحابة التراب التى تعلو تلك الجموع تدل على كثرة اعدادها

وانها لابد ان تكون القوة الرئيسية من جيش السلطان المترقبة والمتوقع زحفها من القاهرة لنجدة مدينة الاسكندرية .

سقط في يد الصليبيين ودب الهلع والذعر في نفوسهم وأخذ المتخلفون منهم في المدينة يجرون في شوارعها ويخرجون من بين خرائبها كالجرذان المذعورة حتى الملك الذي كان واقفا امام البرج الذي كان قد اتخذه مقاما له ، عندما وصلته اخبار اقتراب الجيش المصري ظهرت عليه علائم الاضطراب والحيرة ، ولا غرو فتطور الظروف ضده وتمرد قواته عليه مفضلة انهاء الحملة والعودة الى بلادها محملة بالغنائم والاسلاب ــ كل تلك الظروف لم تشجعه على وضع أية خطة للدفاع عن المدينة في وجه الجيش المصري ، فتعجل الخروج من المدينة وأخذ يصيح في حاشيته بعصبية متهما اياها بالقعود والتقاعس بل وبالتآمر على خططه لتفشل ، فلما تقدم منه غلامه ليضع على كتفيه رداءه الارجواني اختطفه منه اختطافا ومضى الى باب الخروج بخطى واسعة دون ان يضع الرداء على كتفيه بل أمسك به بيده اليسرى وهو يجره على الارض في أثره ، فكان صورة حية لانسان يجر أذيال الخيبة والفشل ، ومضى الملك رأسا الى مرسى الاسطول دون ان ينزل في خيمة الشاطيء التي أعدت له بل اعتلى ظهر سفينته ونفخ في الأبواق ايذانا بالرحيل .

وأقلعت سفن الصليبيين عند ظهر ذلك اليوم في اللحظة التي كانت مقدمة القوات المصرية الزاحفة تجتاح أبواب سدرة والزهري

ورشيد وعلى رأسها الأمير المنصورى يصـــاحبه حاكم المدينة الأصلى صلاح الدين بن عـــرام الذى كان قد وصل لتـــوه من الأقطار الحجازية .

وعندما حاذت سفينة الملك بطرس باب البحر من شـــاطىء الاسكندرية صوب بصره الى اسوار المدينة التى خلدت ذكرى جرائمه فشاهد اعلام الصليب وهى تنزع من على ساريات الابراج وترفع مكانها الأعلام المصرية .

وما ان دخلت القوات المصرية الى المدينة حتى شـــغل الأمير المنصورى باعادة تحصين المدينـــة ، فاهتم بتركيب البـــوابات وتصليح التالف منها على حين تفرغ حاكم المدينة لعمليـــة دفن الشهداء وهدم الدور المخربة وتطهير الأحياء المحتـــرقة . وساعد الجنود المصريون وأهالى المدينة الذين انضموا الى قوات الأمير فى رفع الأنقاض . وورى بالتراب فى تلك الأيام كتقـــدير النويرى الاسكندرانى عشرة آلاف شهيد بين رجل وامرأة شيوخا وشبابا وأطفالا ، وكانت عملية الدفن تتم نهارا وليلا على ضوء المشاعل مخافة انتشار الطاعون أو غيره من الأوبئة التى تسير دائمـــا فى ركاب المذابح وغيرها من النكبات .

## ٩ ـ وقع أنباء سـقوط الاسـكندرية في أوربا

ما ان وصلت أنباء سقوط الاسـكندرية الى اوربا حتى عم الفرح معظم دولها ، فأرسل ملك فرنسا ـ وهزيمة المنصورة التى لحقت ببلاده منذ مائة سنة مازالت تؤرق مضجعه ، وكان يومئذ الملك شارل الخامس ـ أرسل هذا الملك رسـولا الى بطرس ملك قبرص ( جلاد النساء والأطفال ) بأنه على استعداد لارسال جيش الى قبرص ليساعده فى القتال ضد شعوب المسلمين،وأرسل كذلك الكونت أميدو حاكم ولاية سافوى رسالة بهـذا المعنى الى الملك بطرس .

أما البابا فقد فرح ايما فرح واغتبط ايما اغتبـاط وأمر بقرع اجراس الكنائس واقامة صلاة شكر على هذا النصر المبين فى كل دول أوربا . وأرسل رسالة مطولة الى الملك بطرس يصب فيهـا بركاته على رأسه كما ارسل له أيضا فى هذه الرسالة وعده الأكيد بالغفران من كل الذنوب يوم الدينونة .

ولكن أنباء هذا النصر لم يكن لها الوقع نفسه فى دول أخرى كانت على علاقات طيبة مع مصر برغم اوامر البـــابا التى تقضى بحظر التعامل التجارى مع دول المسلمين ، فبادرت امارة البندقية بارسال وفد منها الى سلطان مصر ليعلن الاسـف على حـدوث ما حدث وانه على الرغم من ان البندقية كانت من ضمن الامارات التى زودت حملة العدوان بالسفن وناقلات الجنود فانهـا كانت تجهل وجهة الحملة على الرغم من محـــاولات «الدوج» حاكم البندقية معرفة غرضها ، ولكن تكتم الملك بطرس لأمر وجهـــة الحملة فوت على الدوج غرضه ، وان الأخير لو كان يعلم وجهـة الحملة لما توانى فى ابلاغ السلطان فى الوقت المناسب حتى لا تؤخذ مدنه على غرة كما حدث لمدينة الاسكندرية !.

واخيرا رجا وفد البندقية السـلطان فى اعادة علاقات الود والسلام واستئناف التبادل التجارى بين البلدين (البندقية ومصر) لعودته بالنفع على كلتيهما ، ولكن السلطان رفض أن تكون له أية علاقة ودية كانت أم تجارية مع أى بلد مسيحى ما دامت حالـة الحرب مازالت قائمة بين مصر وقبرص . الا أنه وعدهم بأنه بعد ان يصفى حسابه مع ملك قبرص سينظر فى أمر اعادة العـلاقات التجارية مع الدول المسيحية الصديقة الى ما كانت عليه قبـل العدوان على مدينة الاسكندرية .

## ١٠ ـ مفاوضـــات الصـــلح

مرت مفاوضات الصلح بين قبرص ومصر فى مرحلتين : فقد بدأت المرحلة الأولى بعد انفضاض معسكر الصليبيين الحلفاء فى قبرص برحيل كل فئة منهم الى حيث جاءت ومعها نصـــيبها من الغنائم والأسلاب ، عندئذ شعر ملك قبرص بضعفه وبأنه لا طاقة له بقتال سلطان مصر ، وكان وقوفه على هذه الحقيقة المـروعة السبب الذى افاقه من نشوة النصر وسكرته ، فماذا لو قامت دولة كبيرة كمصر بجيوشها ومواردها الهـــائلة من الرجال والاموال وقدمت لدويلة قبرص كشف الحسـاب وجردت عليهـا سيف القصاص ؟ ما العمل ؟ ويومئذ أين المفر ؟ .

لذلك بادر ملك قبرص بعد عودة وفد البندقية بخفى حنين من مفاوضات القاهرة بارسال وفد من لدنه الى القاهرة ليتحـــدث باسمه فى بلاط السلطان بشأن الصلح ، وكان الملك بطرس قد حمل مندوبيه بالهدايا القيمة وزودهم بخطابات الاعتمادات اللازمة لرحلتهم .

واستقبل السلطان هذا الوفد وبعد أن أخذ منهم هدايا ملك قبرص طلب منهم ، كشرط أساسى لبدء المفاوضات أن يفرج فورا عن أسرى المسلمين الذين فى قبضة ملك قبرص ، فطير الخبر الى الملك بطرس حيث سارع الأخير فعلا وأرسل من كان تحت يده من الأسرى معتذرا بأنه أهدى الى الدول التى ساعدته فى حملته باعداد من هؤلاء الاسرى تناسب ما قدمته له من مساعدات .

ووصل أسرى ملك قبرص من المصريين وكانوا لا يزيدون على ثلثمائة ومعهم ستون أسيرا آخرون كانوا نصيب امارة جنوة التى كانت ترقب سير المفاوضات عن كثب ، وما ان اطمأن السلطان الى وصول الاسرى وتيقن ان عددهم هو أقصى ما أمكن استرجاعه من عددهم الأصلى البالغ خمسة آلاف حتى غير من اسلوبه فى المفاوضة وأمر بطرد الوفد من القاهرة ، وانتهت المرحلة الأولى بذلك .

بدأت المرحلة الأخيرة بعد ذلك بتدخل امارتى جنوة والبندقية ورجائهما للسلطان بان يحسم الخلاف ويطلب الترضية الكافية ، وكان سعيهما هذا لتيقنهما من الضرر الذى حاق بمصالحهما التجارية فى أسواق الشرق باستمرار حالة الحرب بين مصر وقبرص . واستمرت هذه المفاوضات غير المجدية زهاء أربع السنوات والسلطان يراوغ كسبا للوقت . وقام القبارصة خلال تلك

الفترة بعدة غارات على شواطىء الشام ومصر بقصد الضغط على سلطان مصر لقبول الصلح ولكن دون جدوى .

وكان السلطان فى تلك الأثناء قد أمر باستدعاء كل نجـار فى الدولة وأرسل الى الشام فى طلب الأخشاب على أن تصـله على جناح السرعة وأنشأ ترسانة بحـرية ضـخمة عنـد بولاق لصنع الأسطول المصرى الجديد لتصفية الحساب مع قبـرص ولينتقم لغزوتها الآثمة لمدينة الاسكندرية .

وعام ١٣٦٩ م مات الملك بطرس الأول ملك قبرص فقد اغتاله أعوانه لخلافهم معه على توزيع غنائم غارة الاسكندرية ، وخلفه بطرس الثانى الذى سار على نهج سلفه واراد ان يقهر مصر على قبول الصلح ، فجهز حملة من الفرسان حملـها على أربع سفن ضخمة وامرها بالاغارة على شواطىء الشام على ان تختم رحلتها بالغارة على مدينة الاسكندرية ذاتها للمرة الثانية .

فقامت هذه السفن فعلا بالاغارة على موانى نابلس وطرابلس واللاذقية ثم ظهرت امام الميناء القديم لمدينة الاسكندرية وارسل الصليبيون رسالة لحاكم المدينة يسألونه : هل مصر على استعداد لقبول الصلح مع قبرص أو لا ؟ فأجابهم حاكم المدينـة بأن مصر تقبل أى شىء الا الصلح مع قبرص ! فدخلت السفن الأربع الى الميناء القديم واستعدت للهجوم على سـفينة مصرية كانت قادمة لتوها من المغرب يجرى تفريغها الا انها ما كادت تتوسط الميـناء

حتى انهالت على تلك السفن المغيرة قذائف المنجانيق الضخمة وقوارير النفط المشتعل والسهام والاحجار فولت السفن الأربع الأدبار قانعة من الغنيمة بالاياب !

وتم انشاء الأسطول المصرى فى ترسانة بولاق وكان يتألف من مائة سفينة بين حراقة وفرقاطة ونحوهما ولكن تطور الاحداث فى مصر أخر تنفيذ خطة الأخذ بالثأر وتسديد ضربة الانتقام الى مملكة قبرص . فتعرضت مصر لاحد الانقلابات التى اشتهر بها حكم المماليك وانتهى باغتيال الأمير يلبغا الاتابكى ، كما اجتاح مصر وباء الطاعون فى احدى زياراته المتكررة ورأى أمراء الجيش تسريح اعداد كبيرة من الجنود الى بلادهم خشية العدوى ، فضلا على أن اقتصاديات البلاد ذاتها كانت فى حالة تدهور شديد بسبب الكساد الناتج من حالة الحرب بين قبرص ومصر ، وكما كانت لهذه الحالة أثرها السىء على اقتصاديات مصر كان لها ايضا الأثر نفسه على الدول المسيحية التى كانت لها علاقات تجارية مع مصر والشام كالبندقية وجنوة وبيزة .

ولما طالت فترة الخصومة بين سلطان مصر ومملكة قبرص عرضت البندقية أمر الوساطة فى الصلح على كل من مصر وقبرص فتلقفت قبرص ذلك العرض على الفور وقبلته شاكرة للبندقية السعى ، وبعد ان استعرض سلطان مصر العوامل والظروف التى كانت البلاد تمر بها والتى سبق شرحها قبل هو ايضا الدخول فى محادثات الصلح مع أن الأيام أثبتت فيما بعد أن سلطان مصر

لم يكن خالص النية فى تصرفه ، ولم ينس ذات يوم ما لمصر من ثأر قبل مملكة قبرص لقيامها بحماقة العدوان على الاسكندرية.

واخيرا ، وبعد أن تأرجحت المفاوضات بين الفشل والنجاح مدة من الزمن أعلن الصلح بين سلطان مصر ، وكان يومئذالمنصور علاء الدين على ، وملك قبرص بطرس الثـــانى ، وكان ذلك فى الأسبوع الأول من شهر اكتوبر سنة ١٣٧٠ م.

## ١١ ـ نتائج حملة الصليبيين على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م

كان لنزول الصليبيين على الاسكندرية سنة ١٣٦٥م أغراض اجملناها فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، ولكن باستعراض أحداث هذه الغارة نصل الى حقيقة هامة وهى أن هذه الحملة المدبرة لم تحقق أى غرض من الأغراض التى ارتكب الصليبيون من أجلها كل ما اقترفوه من جرائم فى مدينة الاسكندرية : فلم يحرر جيش الصليبيين الأراضى المقدسة فى فلسطين وقبر المسيح فى القدس ، ولم يقض على الدين الاسلامى ويقتل كل المسلمين كما دعا الى ذلك دعاة الحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر أمثال فيليب دى مينزيير وبيير دى توماس اللذين كانا من أشهر هؤلاء الدعاة ، مما دعا بطرس ملك قبرص الى استدعاء أولهما وتعيينه مستشارا له ، كما عين البابا الآخر منهما مندوبا عنه لمصاحبة هذه الحملة .

كذلك لم تنشأ الأمارات اللاتينية فى الشرق العربى لتكون

قواعد للعدوان بجانب كونها نقطا لمراقبة وثبات العرب على الأمم المسيحية فى ارمينية وآسيا الصغرى .

كذلك لم يتمكن الصليبيون من الاحتفاظ بثغر الاسكندرية واستخدامه كقاعدة وطيدة لهم للوثوب منها على دول المسلمين برا وبحرا ، ولم يحقق جيش الصليبيين من ذلك شيئا وكل الذى أفلح فيه ذلك الجيش هو أنه أعطى صورة صادقة لتطور بل تحول الحملات الصليبية عن أهدافها الأصلية وأغراضها التى كانت تسعى لتحقيقها كما كانت تفعل فى القرن الحادى عشر ، فلم تكن تلك الجيوش التى وفدت على الشرق فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر جيوشا جاءت تدفعها فكرة دينية خاصة وأهداف ذات طابع عقائدى تسعى لتحقيقها بقدر ما كانت حملات تتكون من عصابات مسلحة من كل دول أوربا تجمعها نزعة واحدة وهى حب المغامرة والقرصنة والنهب والسلب .

أما نتيجة هذه الحملة الصليبية بالنسبة لمصر فكانت كما يصح أن يقال : « رب ضارة نافعة » فقد اهتم سلاطين مصر بعدها بسواحل مصر فزيد تحصين مدن الساحل كما كانت السبب الرئيسى لنهضة مصر البحرية اذ على أثرها بدىء فى انشاء الاسطول المصرى الذى قام بدور هام وانفرد بالدفاع عن شواطىء مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وخصوصا فى عهود السلاطين الاشرف برسباى وبرقوق وقايتباى صاحب القلعة المقامة على مدخل الميناء الشرقى لمدينة الاسكندرية حتى الآن .

والحق يقال : لقد كانت هذه هي الفترة التي تألق فيها نجم هذا الأسطول فلم تجرؤ دولة على الاغارة على مدن سواحل مصر والشام خلالها ، اذ سيطر أسطول مصر سيطرة تامة على منطقة شرقي البحر المتوسط كلها بما فيها من جزيرة قبرص ذاتها كما سيأتي الكلام عن ذلك فيما بعد .

## ١٢ ـ ضربة الثأر ـ
## عام ١٤٢٦ ميلادية

أعلن الصلح بين سلطان مصر وملك قبرص سنة ١٣٧٠ م . ومضت السنون مثقلة بجلائل الأمور التى يزخر بها تاريخ مصرنا الحبيبة . وعلى الرغم مما عانته البلاد من اضطرابات سياسـية كمظهر من المظاهر التى امتاز بها عهد المماليك فان شعب مصـر وسلاطينها المتعاقبين لم ينسوا فى أى يوم الثأر لغارة الصليبيين على الاسكندرية والدمار الذى لحق عروس البحر من جرائها ، فاعتبر كل سلاطين مصر فى ذلك الوقت أن عدوهم الأول هو دولة قبرص ، فاهتموا بأمر الأسطول كأداة الانتقام الأولى من عدوهم كذلك اهتموا بأمر الجيش فقاموا بتعزيزه وزيادة قواته وعتاده .

ومرت أصابع الزمن على وجه الاسكندرية الحزين تمسح عنه جراح المحنة حتى عاد له الاشراق شيئا فشيئا ، ومع توالى السنين أعيد بناء دورها وقصورها ومساجدها وأسواقها ، وأزينت عروس

البحر وتألق نجمها وأصبحت كما كانت يدخل اليها ويخرج منها يوميا عشرات السفن من مختلف الجنسيات .

ودالت دولة المماليك البحرية وجاءت بعدها دولة المماليك البرجية التى أسسها الظاهر سيف الدين برقوق سنة ١٣٨٢م .ولم تختلف نظرة المماليك البرجية عن نظرة المماليك البحرية من ناحية السياسة الخارجية وموقف مصر من قبرص والعناية بأمر الأسطول والجيش . فدخل الأسطول البحرى المصرى فى عهد المماليك البرجية فى فترة هى أوج أمجاده ، اذ زاد خلالها عدد السفن حتى قارب المائتين والخمسين سفينة مختلفة الأشكال والأحجام .ومضى على غزوة الاسكندرية احدى وخمسون سنة والثأر لشهداء الاسكندرية من مملكة قبرص ظل نارا تتلظى فى الصدور .

وذات يوم من عام ١٤٢٦ وسلطان مصر وقتئذ كان الأشرف سيف الدين برسباى ظهر أسطول مصر فجأة وبلا سابق انذار أمام جزيرة قبرص ، وكان هذا الأسطول يعج بالمقاتلة والبحارةالأشداء المدربين : فأما الجيش الذى كان يحمله هذا الأسطول فكان من قرى مصر ومدنها ، وأما البحارة فكانوا من أبناء مدن السواحل فى مصر والشام . وقد جاء الجميع فى ذلك اليوم لتصفيةالحساب . مع دولة قبرص التى سولت نفس مليكها له ذات يوم أن يستعدى عليها دول أوربا .

هاجم الأسطول المصرى ليماسول بقوة وعنف فدمر وأسر كل سفن القبارصة الراسية بها وضرب المدينة ضربا شديدا

بالمجانيق ، ثم نزلت القوات المصرية الى الشاطىء ووضعت كل من ليماسول وفيما جوستا والعاصمة نيقوسيا تحت السيف والنار .

شيء واحد لم يفعله المصريون ، فهم لم يقتلوا الشيوخ ولا النسوة ولا الأطفال ولم يبقروا بطون الحوامل ، بل ساقوا ابناء قبرص ارقاء الى مصر وقبلوا من أهل قبرص الفدية عن ابنائهم الأسرى وقد أذاق المصريون هذه الجزيرة من صنوف الذل والهوان بعض ما ذاقته الاسكندرية على يد السفاح بطرس الأول وجيشه .

ولم يكتف سلطان مصر بذلك بل ضم كل الجزيرة الى ملك مصر ، وساق ملكها ، وكان يومئذ يانوس دى لوسنيان ، يرسف فى الأغلال فى شوارع القاهرة ليراه الناس فتهدأ نفوسهم، وعندئذ فقط استراحت أرواح شهداء الاسكندرية الذين راحوا ضحية العدوان الصليبى عليها سنة ١٣٦٥ م وظلت جزيرة قبرص تابعة لمصر حتى الغزو العثمانى لها سنة ١٥١٧ ميلادية .

## ١٣ ـ الخاتمـــــة

وبعد ..

فقد بقيت حقيقة رائعة لا مناص من توضيحها للقـارىء العربى :

فكوننا شعب يحب السلام ـ ليس معناه أن نحب الاستسلام، وقد ذكر السيد الرئيس « جمال عبد الناصر » هذه الحقيقة ذات يوم من عام ١٩٥٦ عندما تعرضت مصر للعدوان الثلاثى الغاشم، ولم يكن صمود مصر سنة ١٩٥٦ الا امتـــدادا لما قامت به مصر وشعبها من صمود فى وجه الاستعمار الصليبى الذى استمر زهاء قرون ثلاثة ، والذى كان العدوان القبرصى ـ الذى أعدته دول أوربا ـ ماهو الا فترةقصيرة منه ، وهكذا أثبتت مصر المرة تلو المرة أنها قلعة العروبة ودرع الاسلام الواقية وسيفه البتار .

وقد حاولت قبرص بعد عدوانها على الاسكندرية ان تضغط

على مصر لقبول الصلح معها بالغارات على سواحل مصر والشام زهاء أربع سنوات دون جدوى . ولقد حاولت دولة الصهيونيين عقب انشائها عام ١٩٤٨ اتباع تلك السياسة حتى سنة ١٩٥٥ م وهى سياسة فرض الصلح على العرب ، ولكن هيهات أن ترى اسرائيل ذلك الصلح .

وحقيقة أخرى يطيب المقام لذكرها ، وهى أننا شعب لاينسى الاساءة أبدا فعندما سقطت الشام فى يد الصليبيين واحتلوا القدس ظلت المدينة المقدسة فى أيديهم تسعين عاما حتى حررها صلاح الدين الأيوبى عقب انتصاره على الصليبيين فى معركة حطين المشهورة ، ولم يقل أحد قط ان مصر العربية نسيت ثأر القدس بل ظلت تسعين سنة تعد العدة وتوحد الصف العربى استعدادا ليوم حطين وهو يوم الانتقام لدماء خمسة وستين ألفا من أهالى القدس ذبحهم الصليبيون يوم سقوط المدينة فى أيديهم ، ولم ترض مصر عن ذلك قط باعتبار ان وجود الصليبيين فى الأرض المقدسة أمر واقع .

وفى موضوعنا الذى نحن بصدده وجدنا أن سلاطين مصر من دولتى المماليك البحرية والبرجية لم ينسوا قط الثأر لغزوة الاسكندرية ، بل ظلوا يتحينون الفرصة قرابة نصف قرن من الزمن حتى سنحت تلك الفرصة لضربة الانتقام .

وسنة ١٩٤٨ تم اقتطاع جزء من الوطن العربى فى الأرض

المقدسة لتقوم عليه دويلة الدنس اسرائيل تنفيذا لوعد قطعته على نفسها بريطانيا لليهود ، وبريطانيا دولة معروف عنها أنهاطالما ناصبت شعوب العرب العداء منذ القرن العاشر الميلادى .

وما أشبه الليلة بالبارحة !. اذ مضت على هذه الجريمةالدولية حتى اليوم زهاء الخمس عشرة سنة ، ونظرتنا لوعد بلفور ـ كما عبر عنها السيد الرئيس جمال عبد الناصر ـ هى « أن الذى لا يملك أعطى وعدا من لا يستحق » . فهل استسلمنا لمشيئة بريطانيا ؟ وهل نحن راضون عن بقاء اسرائيل على أرضنا باعتبار قيامها أمرا واقعا ؟... لا ، وألف مرة لا !

وهل نسينا شهداءنا الذين روت دماؤهم الزكية شوارع بورسعيد وفيافى سيناء وربى فلسطين الحمراء ؟ لا،وألف مرة لا !

ان لنا مع اسرائيل يوما طال انتظاره أم قصر ، ستشرق شمسه لا محالة ، وسيكون أول هذا اليوم لنا ، وآخره عليها ، باذن الله .

بقى سؤال أخير لا أشك فى أنه طالما جال بخاطر القارىء الكريم وهو : كيف جرؤت دولة صغيرة الشأن كقبرص على القيام بعدوان مدبر على دولة عظيمة غنية الموارد كمصر ؟

فى الواقع تمت الغارة الصليبية على الاسكندرية بالصورة التى تمت بها بتكتيك معروف فى الدوائر العسكرية ، يقوم على نظرية « اضرب واهرب » وهو تكتيك حرب العصابات يلجأليه

الجانب الضعيف ضد الجانب القوى عندما لا تتكافأ موازين القوى لدى كلا الجانبين المتحاربين ، وكان الملك بطرس الأول مخطئا فى ظنه عندما اعتقد ونادى بالرأى الذى يرى ضرورة التمسك بمدينة الاسكندرية بعد سقوطها والدفاع عنها . وأن معارضيه كانوا على صواب وأبعد منه نظرا فانصرفوا عنه وركبوا سفنهم استعدادا للرحيل بعد اليوم السادس لسقوط المدينة مما اضطر الملك الى النزول على رغبة اتباعه مكرها .

وهكذا لقيت حملة الصليبيين على الاسكندرية بعض النجاح النسبى كغارة للقرصنة والنهب والسلب فقط . وكان هذا النجاح برغم أنف الملك ، اذ لو استمر الملك راكبا رأسه وتمسك بالمدينة برغم معارضة معظم قواده لكان مصيره الذبح هو وجيشه كافة.

ومن العوامل التى ساعدت الصليبيين على نجاح حملتهم انصراف حكام مصر عن تحصين مدن السواحل ، وكان هذا الانصراف نتيجة للاضطراب السياسى والفتن والحروب الأهلية التى كانت تستعر بين المماليك بسبب طمعهم فى كرسى السلطنة ، فكل أمير منهم كان يقبع فى عقر قصره ليدبر لاغتيال خصمه أو ليدس للسلطان أو يتآمر عليه بغية أخذ مكانه . وأن النظرة السطحية الى تلك القائمة لسلاطين مصر الذين عاصروا هذه الأحداث والتى أوردتها فى آخر هذا الكتاب لتعطينا فكرة واضحة سليمة عن مدى هذا الاضطراب ، فنحن نرى فى هذه القائمة أن فى عام ١٤٢١م وحده تعاقب على عرش مصر سلاطين ثلاثة ،ولولا

هذه الزعزعة المستمرة لكرسي الحكم وهذه الفتن التى كانت تعم البلاد وهذا الاضطراب السياسي بكل صوره ما تمكن أعداء مصر منها فى أى يوم ، وما تمكن سليم الأول العثمانى من غزوها قط.

فبعد معركة « مرج دابق » التى هزم فيها الأشرف قنصوه الغورى تحولت مصر بعد احتلالها سنة ١٥١٧ م من دولة من الدول الكبرى ذات سيادة وممتلكات الى ايالة عثمانية لا حول لها ولا قوة ، ودب الفساد والرشوة فى كل مراحل البلاد وكسدت التجارة ونهب الوالى التركى كل خيرات الأرض وحولها للسلطان العثماني ، فأصبحت مصر كالبقرة الحلوب يتقاسم خيرها الغزاة العثمانيون والمماليك والشعب يتضور جوعا وبؤسا حتى أطمع ذلك بونابرت الذى انتهز فرصة الخلاف ــ الذى كان مستمرا ــ بين الوالى والمماليك ، والمماليك فيما بينهم ــ وقدم على رأس حملته المشهورة سنة ١٧٩٩م واحتل مصر ليتركها بعد ذلك بقليل لأسباب لامحل لذكرها .

وبعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر اقتتل عليها العثمانيون والمماليك والانجليز أعداء العرب التقليديون ففاز بها مغامر ألبانى اسمه « محمد على » ، الذى حكم مصر بالسوط كأنها احدى الضياع التى ورثها عن أجداده . ثم تعاقبت ذريته على عرش البلاد من بعده وكلهم بين مجنون جاهل أو ماجن سفيه والبلاد تئن وترزح تحت حكمهم تماما كما كانت تقاسى أيام حكم المماليك !

وذات يوم ، والجالس على عرش البلاد رجل لم يكن فيه أى خير الا أنه خائن ، هب ضابط فلاح وحاول أن يشرح لهذاالخديو حقيقية بدهية بسيطة وهى أن أهل مصر قد ولدتهم أمهاتهم أحرارا وأنهم لم يورثوا من الأجداد الى الحفـدة ، فتمخضت قريحـة الخائن توفيق العليلة عن أن يستعد الانجليـز على أصـحاب البلاد الشرعيين ، فتلقف الانجليز الفرصة وكانت مأســاة التل الكبير سنة ١٨٨٢م واحتـلالهم لمصر وتحقـق بذلك أمـل دول الصليبيين بعد قرون عدة ، باعتبار أن القـاهرة هى أول الطريق الى الأراضى المقدسة !

وهذه حقيقة حاول التدليل عليها قبل ذلك لويس التاسع ملك فرنسا ونزيل دار ابن لقمان فى المنصورة سنة ١٢٥٢ م ، وعنـدما تقدم الجنرال «اللنبى» على رأس الحملة البريطانية للزحف على فلسطين باعتبارها من ممتلكات السلطان التركى ( خليفة المسلمين فى الآستانة ) وسقطت بيت المقدس فى قبضته سـنة ١٩١٧ م ولم يتمالك ذلك الانجليزى نفسه من أن يقول كلمته المشهورة «اليوم انتهت الحروب الصليبية » وكانت هذه كلمات لا تخفى على فطنة العرب وأكد هذه الحقيقة الجنرال «جورو» القائد الفرنسى الذى دخل دمشق فى تلك الآونة ، ووقف على قبر صلاح الدين الايوبى وهو يبدى التشفى والشماتة والحقـد والغل يشعان من عينيـه وقال : « ها قد عدنا يا صلاح الدين ! »

ومضت السنون ، ومرت الأيام .

وأشرقت شمس يوم « ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ » .

وحلق فى سماء مصر نسر صلاح الدين .

وبضربات سريعة متلاحقة من جناحيه القويين نفض عن أرض الكنانة أدران الماضى ، وغبار القرون !

وهرعت نسور العرب وعقبانها الى وكر النسر فى القاهرة لتتلاقى مع صانع الأمجاد وناصر الحق .

وستضيق الحلقة حول رقبة اللص الأجرب سالب الأرض ، وبعد قليل تزهق منه الأنفاس .

وسيتسابق فرسان العرب الأمجادعلى أرض فلسطين الموحدة، بعد تطهيرها من الرجس والدنس ، من جنوبيها الى شماليها ،ومن شرقيها الى غربيها ، وهتافهم « الله أكبر ، الله أكبر ، » يشق عنان السماء .

ويومها سيكتب التاريخ !

## ١٤ ـ قائمة أسماء سلاطين مصر المماليك الذين عاصروا الحروب الصليبية فى مراحلها الأخيرة

سنة ١٢٩٠ ميلادية الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون

سنة ١٢٩٣ ميلادية الناصر نصير الدين محمد ( الأول ) .

سنة ١٢٩٤ ميلادية العادل زين الدين كتبغا

سنة ١٢٩٦ ميلادية المنصور حسام الدين لاشين المنصورى .

سنة ١٢٩٨ ميلادية الناصر نصير الدين محمد ( الثانى ) .

سنة ١٣٠٨ ميلادية المظفر ركن الدين بيبرس .

سنة ١٣٠٩ ميلادية الناصر نصير الدين محمد (الثالث)

سنة ١٣٤٠ ميلادية المنصور سيف الدين أبو بكر .

سنة ١٣٤١ ميلادية الأشرف علاء الدين كوجوك .

سنة ١٣٤٢ ميلادية الناصر شيباب الدين احمد .

سنة ١٣٤٢ ميلادية الصالح عماد الدين اسماعيل .

سنة ١٣٤٥ ميلادية الكامل سيف الدين شعبان .

سنة ١٣٤٦ ميلادية المظفر سيف الدين حاجى .

سنة ١٣٤٧ ميلادية الناصر نصير الدين حسن (الأول) .

سنة ١٣٥١ ميلادية الصالح صلاح الدين صالح .

سنة ١٣٥٤ ميلادية الناصر نصير الدين حسن (الثانى) .

سنة ١٣٦١ ميلادية المنصور صلاح الدين محمد .

سنة ١٣٦٣ ميلادية الأشرف نصير الدين شعبان .

سنة ١٣٦٧ ميلادية المنصور علاء الدين على .

سنة ١٣٨١ ميلادية الصالح صلاح الدين حاجى (الأول) .

سنة ١٣٨٢ ميلادية الظاهر سيف الدين برقوق (أول المماليك البرجية) «الأول» .

سنة ١٣٨٩ ميلادية الصالح صلاح الدين حاجى (الثانى).

سنة ١٣٩٠ ميلادية الظاهر سيف الدين برقوق (الثانى)

سنة ١٣٩٨ ميلادية الناصر نصير الدين فرج (الأول) .

سنة ١٤٠٥ ميلادية المنصور عماد الدين عبد العزيز.

سنة ١٤٠٦ ميلادية الناصر نصير الدين فرج (الثانى) .

سنة ١٤١٢ ميلادية الخليفة العباسى العادل المعتصم .

سنة ١٤١٢ ميلادية المؤيد سيف الدين شيخ .

سنة ١٤٢١ ميلادية المظفر أحمد

سنة ١٤٢١ ميلادية الظاهر سيف الدين تاتار .

سنة ١٤٢١ ميلادية الصالح نصير الدين محمد .

سنة ١٤٢٢ ميلادية الأشرف سيف الدين برسباى.

سنة ١٤٣٨ ميلادية العزيز جمال الدين يوسف.

سنة ١٤٣٨ ميلادية الظاهر سيف الدين شقمق.

سنة ١٤٥٣ ميلادية المنصور فخر الدين عثمان

سنة ١٤٥٣ ميلادية الأشرف سيف الدين اينال .

سنة ١٤٦٠ ميلادية المؤيد شيباب الدين أحمد .

سنة ١٤٦١ ميلادية الظاهر سيف الدين خوش قدم .

سنة ١٤٦٧ ميلادية الظاهر سيف الدين بلبباى .

سنة ١٤٦٨ ميلادية الظاهر تيمور بغا .

سنة ١٤٦٨ ميلادية الأشرف سيف الدين قايتباى .

سنة ١٤٩٦ ميلادية الناصر محمد .

سنة ١٤٩٨ ميلادية الظاهر قنصوه .

سنة ١٤٩٩ ميلادية الأشرف جنبلاط .

سنة ١٥٠٠ ميلادية العادل سيف الدين طومان باى .

سنة ١٥٠١ ميلادية الأشرف قنصوه الغورى.

سنة ١٥١٦–١٥١٧ الأشرف طومان باى .

فسبحان من يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

# فهرس

صفحة

الدار القومية للطباعة والنشر